مقدّمـة

يُعتبر علم اللسانيات من العلوم ذات الشأن في الحقل اللغوي والأدبـي على حدّ سواء ، وقد نـازع هذا العلـمَ معطيـات وثوابـت كثـرا فـي تراثنـا بمختلـف فروعـه ، لتموج بـذلك حقول المعرفة اللغوية في البلاد العربية بكثير من العلوم التي امتزجت فيها أصالة التراث بالبحث اللساني المعاصر ، ولعلّ علم الأسلوب من أهمّ تلك العلوم التي أثْرت وأثّرت في الدرس اللغوي العربي الحديث ، وبخاصة النقديّ منه ؛ لأنّ التّوق إلى اكتشاف أدبيّة النصوص ، ومقاربة أبعادها المختلفة بَعَثَ بمحاولات جدّية حثيثة أسلمت نفسها – باكرا – إلى منهجية دَيدَنُها النّظام ، وأداتها اللغة ، وهدفها الأساس التشكيل الفنّيّ في أبعد مداه وأقصى غايَته .

والتنظير الأسلوبي ينطلق من البنى اللغويّة للنصوص ؛ وذلك ببيان العلاقات بين مُستوياتها المختلفة الصوتية منها ، والصرفية ، والنحوية ، والدلالية ، ليصل إلى تحديد الخصائص اللغوية المختلفة التي يتحوّل بها الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية . ومن هنا انطلقنا ونحن نسائل أنفسنا : إلى أيّ مدى تكون البنية اللغوية للنّص كافية دون ما عداها من مؤثرات بيئية وفكرية واجتماعية وغيرها للوقوف على جملة الخصائص الفنيّة للعمل الأدبي ؟

تطلّبت منّا الإجابة عن السؤال السابق القيامَ بدراسة تطبيقية تسير على نهج الأسلوبية وأُطُرها التي حدّدتها للوقوف على صحة الفرضيات والنّظريات التي قدّمتها . ورأينا بعد ذلك أنّ من أحسن النصوص العربية التي تصلح لهذا النوع من الدراسة ، القصائد الجاهلية ؛ لأنّ هذه الأخيرة لم يتبق منها – في الحقيقة – إلاّ تشكيلاتها اللغوية ، ولأن لغتها – عموما – مثّلت رُقيّا شعريا ؛ فالألفاظ توضع في مكانها بدقّة ، والعبارات تُؤدّي معانيها بدون اضطراب ، والمعاني واضحة بسيطة ليس فيها تكلّف ولا إغراق ، سواء حين يتحدّث الشاعر عن نفسه ، أو حين يُصوّر

ما حوله في الطبيعة . ورأينا بعد ذلك أنّ لامية الشنفرى المدعوّة بـ " لاميّة العرب " من أحسن القصائد القديمة المُناسبة لطبيعة دراستنا ؛ لأنّ بناءها اللّغوي يُغري بالدراسة لجمال

إيقاعه ومتانة تراكيبه وتعدّد دلالاته ، كما أنّها تعتبر وثيقة أمينة لمن أراد أن يتعرّف على العربي في حياته ، وبيئته برملها ووديانها ووحوشها وطيورها .

قبل البدء في دراستنا التطبيقية رأينا أنّه من المُفيد أن نضع مدخلاً يكون أرضية للموضوع ، يقوم أساسًا على شقّي البحث الأساسيين: نوع الدراسة والقصيدة ، لنبدأ بهذه الأخيرة ونبسط الكلام فيها من جوانب مكانتها بين القصائد العربية ، وشهرتها ، والكلام الكثير الذي قيل في صحّتها ، والعلماء الذين عُنُوا بشرحها ، وهذا من دون أن نغفل الحديث عن قائلها ولو بصفة مختصرة . ثم يمّمنا وجوهنا شطر الأسلوبية بادئين بمفهوم الأسلوب وتحديداته المختلفة اللّغوية منها والفكرية ، لنصل بعد عرض لمساره العلمي في الدرس اللساني الحديث إلى إجماله في مقولات ثلاث: الإضافة والاختيار والانزياح ، لنتحدث بعد ذلك عن أهمّ الاتجاهات الأسلوبية مُعتمدين في ذلك على تقسيم اللساني الفرنسي " جيرو " ، ووجّهنا كلامنا بعد ذلك للحديث عن نقاط هامة في موضوع الأسلوبية ، كعلاقة هذه الأخيرة بالإحصاء ، وبعلم اللسانيات ، وبالبلاغة ، وبالنحو ، وبالنقد الأدبي ، لنختم هذا المدخل بحديث حول نقطة أثارت كثيرا من الجدل ، هي أحقية الأسلوبية بمصطلح العلم بعد إصرار البعض على إبقائها منهجا لسانيا .

وبالنسبة للدراسة التطبيقية فقد قسمناها على ثلاثة فصول : فصل لموسيقى القصيدة وإيقاعاتها المختلفة ، وآخر لقضاياها التركيبية المُتعدّدة ، وأخير لدراسة أبعادها الدلالية بمختلف شحوناتها وجذورها ورموزها ، وفي هذا كلّه انطلقنا من مبدإ أساس ، هو اعتبار كل مستوى من المستويات السابقة **بنية** تتضمن العديد من المكونات والعناصر التي تتعالق / تتفاعل فيما بينها لتخدم النص الشعري في كلّيته .

بالنسبة للفصل الأوّل فقد افتتحناه بتوطئة أجملنا فيها الحديث عن أهمّية السّمع والإنشاد في الفكر الشعري العربي ، وعن حرص العرب على توزين الأصوات وهندسة نغماتها ، ومحاولة إخراجها في أبهى حُلّة إيقاعية . لننطلق بعدها في الدراسة الموسيقية للقصيدة ، والتي جعلناها قسمين كبيرين ، أوّلهما خاص بموسيقى الإطار أو ما يسمى بالموسيقى

الخارجية ، وعالجنا فيه ما يتولّد من إيقاع موسيقي عام عن تركيب الأصوات في القصيدة بمقتضى " الوجوب " ، ونعني بالوجوب هنا ما يندرج في اختيارات الشاعر المبدئية عندما يريد نظم الشعر ، ويشمل ذلك أساسا الوزن الشعري والقافية ، هذان الأخيران جعلناهما أهم مباحث هذا القسم بما اشتملا عليه من عناصر . والقسم الثاني من هذا الفصل جعلناه مخصّصا لدراسة أهم ظواهر موسيقى الحشو ، أو ما يسمى بموسيقى النّص الداخلية ؛ حيث أنّنا وجدنا في القصيدة موسيقى لم تتولّد عن الوزن والقافية ، وإنّما نتجت عن علاقة الأصوات فيما بينها ، وقد انطلقنا في هذا القسم من منهجية متدرجة من الحدّ الأدنى المتمثّل في الصوت المنفرد المعزول عن أيّ إطار دلالي ، ثم الإطار الدلالي الأدنى المتمثل في اللفظ المفرد ، فالإطار الدلالي الموسع متمثلا في ضروب التقطيع المخصوصة ، لنختم بعدها هذا القسم والفصل بدراسة بعض الظواهر الموسيقية الخاصة .

أمّا الفصل الثاني فقد بدأناه - هو الآخر- بتوطئة بسطنا فيها الكلام عن أهمية النحو ، وعن طريقة بناء الجمل في الشعر ، ومعاني النّحو عند عبد القاهر ، ومُصطلحي الضرورة الشعرية والاتّساع في النّظرية اللّغوية العربية ، وعن مصطلح " الانزياح " في النظرية اللسانية الحديثة ، لننطلق بعدها في معالجتنا التطبيقية من هذا الأخير؛ لنتوقّف عند كل مظهر تركيبي خالف نظام اللّغة العادي ، كقضايا الحذف والتقديم والتأخير ، والاعتراض ، والتناوب ، وطول الجملة ، لنختم بعد ذلك هذا الفصل بدراسة لبعض المظاهر الخاصة في تراكيب القصيدة خارج مجال الانزياح ، والتي عكست بصفة لافتة خصائص التركيب في لامية العرب .

وبالنسبة للفصل الثالث والأخير فقد تحدثنا فيه أوّلا عن الدّلالة بصفتها حلقة مهمّة من حلقات البحث اللساني ، ثمّ بحثنا بعد ذلك عن جذور هذا اللّفظ في القرآن ومُعجمات اللّغة ثمّ عن أبعاده المختلفة كمصطلح مخصوص في التراث العربي ، وصولاً إلى بُروزه كعلم مستقل في الدراسات اللغوية الغربية ، وأهم المحطات التي شهدها . وقد كان أوّل مبحث تطبيقي في هذا الفصل محاولة الإجابة عن تساؤل وجيه ، تمثّل في سرّ نعت القصيدة المدروسة بـ " لامية العرب" ؟ . وقد كان اعتقادنا بأنّ ذلك يرجع إلى القيم الإنسانية المبثوثة

بين ثناياها ، وهذا ما قمنا به عارضين كل قيمة على حدة كالوفاء ، والإباء ، والمروءة ، والشجاعة ، وحُسن البلاء ، والإيمان بالذات وغيرها ، لنبدأ بعدها الحديث عن مبحث آخر مُهم ، تمثّل – أساسا – في القيام بدراسة معجمية لجذور ألفاظ أطول جملة في القصيدة ، والتي استغرقت عشرة أبيات كاملة ، لنجد أنّ هذه الجملة الطويلة تنفتح دلاليا بشكل كبير على جوانب القصيدة الجوهرية ومحاورها الأساسية ، لنجعل بعد ذلك آخر مبحث في هذا الفصل والمذكّرة لدراسة الرّمز في القصيدة .